

ملخص

تناول هذه الدراسة مواقف شاهدة للظاهر "بيبرس بن عبد الله التركي الشرقي" المملوك طفلاً لشاربه الأمير علاء الدين الصالحى البندقداري، وقد ظل إليه ينتسب، إلى أن حرّره المالك الصالح نجم الدين أيوب، وجعله في خدمته بالقاهرة، بعد أن تفرّس فيه النجابة والذكاء، ولم يُخيّب ظنّ نجم الدين به، فترعرع في سلك الجندية، إلى أن صار سيد السيف والعمران، كما تشهد له مواقفه خلال واحدة وخمسين سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م - ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) تنقّس فيها أنسام الحياة.

مقدمة

يُعدُّ ركن الدين بيبرس العلالي البندقداري الصالحى النجى الملقب بـ "أبي الفتوح"، سلطان مصر وبلاد الشام،^(١) خامس السلاطين في الدولة المملوكية البحرية، بعد شجرة الدر أرملة الصالح أيوب ت(٦٤٨هـ)، وتوران شاه الذي ولي بعد وفاة أبيه ٦٤٨هـ، وقد لمس تمكن سلطة المماليك وزوجة أبيه شجرة الدر، فسعى في عزلهم واستبدالهم برجال من خاصته، فأدرك خطره الظاهر بيبرس فقتله،^(٢) ثم تولى الحكم بعده المعزُّ عز الدين أيك المعظم، أحد الأتابكة (القائد العام للعساكر) وتزوَّج شجرة الدر، التي كانت تمثل الصفة الشرعية في الحكم، فنار جيش الشام بقيادة الناصر يوسف حفيد صلاح الدين الأيوبي من حلب، حيث كان والياً، مروّراً بدمشق، للانتقام من المماليك الذين قتلوا سيدهم، "توران شاه" الذي هزم ملك الفرنجة في معركة المنصورة، وجهّز سُفناً حملت أخشابها الجمال وبناها سفناً حربية خفيفة على ضفة نهر النيل، فرع دمياط، فأسر بها سفن الفرنجة الحربية والإدارية، وأحدق المسلمون بجيوش "لويس التاسع" فاستسلم، مأسوراً، فأعاد لويس الأسير دمياط مرغماً دون قيد أو شرط.^(٣)

أما عز الدين أيك فهزم جند الشام في معركة "العباسة"،^(٤) وتسلطن بعده المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز أيك، يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول، سنة (٦٥٥هـ) خمس وخمسين وستمائة، وكان كثير اللهو، ولم يكن له التفات إلى تدبير المملكة، وكانت والدته تدبّر ملكه تدبير نساء، فرأى الأمير قطز أن الأمور تؤول إلى فساد، فخلا لقطز الجو، بذهاب الأمراء للصيد فاعتقله، وأرسله إلى سجن في دمياط، في برج السلسلة في وسط البحر، وكانت مدة حكمه سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام. وتوفي سنة (٦٥٥هـ)،^(٥) والمظفر سيف الدين قطز قائد عين جالوت، وكان برفقته الظاهر بيبرس سنة (٦٥٧هـ).^(٦)

وقفات من سيرة بيبرس

بيبرس: تركي من القيقاق (كازاخستان حالياً)، أسر وهو غلام، وبيع في سوق الرقيق بدمشق، وهو ابن أربع عشرة سنة، اشتراه الأمير علاء الدين الصالحى البندقداري، وبقي عنده، وإليه نسب، إلى أن قبض الملك الصالح نجم الدين أيوب على علاء الدين، فأخذه فجعله في خاصة خدمه،^(٧) في مدينة القاهرة، بعد أن أعتقه



الظاهر بيبرس رجل السيف والعمران "مشاهد من مواقفه"

أ. د. حسن محمد الربابعة

أستاذ أدب ونقد عباسي
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة مؤتة

الكرك - المملكة الأردنية الهاشمية



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن محمد الربابعة، الظاهر بيبرس رجل السيف والعمران: مشاهد من مواقفه- دورية كان التاريخية- العدد الخامس عشر: مارس ٢٠١٢. ص ٩٥ - ١٠٦.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

الشاعر معاصر الحدث وبيّنه مرجعاً عند القلقشندي، وبرز في النص تحدي الشاعر للفرنسيين، فإن يعودوا يجدوا غداً ما حلّ بهم اليوم من قتل وأسر وتشريد، كما يشهدونه إذ ذاك في هذه المعركة، وذُكر مليكهم بأسره في دار لقمان، لردعه عن مجازفة أخرى.

ولمّا تولى عزّ الدين أبيك حُكم مصر، بعد زواجه من شجرة الدر،^(١٧) لم يكن الظاهر بيبرس على وفاق معه، فذهب للشام والتحق بخدمة أمراءها من بني أيوب، وظلّ في دمشق، إلى أن آل الأمر إلى سيف الدين المظفر قطز،^(١٨) فاستدعاه قطز وعيّنه قائداً لمقدمة جيشه الملوكي المصري.

(١) دور الظاهر بيبرس في هجوم التتار على بغداد وبلاد الشام ما إن سقطت بغداد في يد المغول بقيادة هولاكو ٢٠ محرم سنة (٦٥٦هـ)، حتى عاثوا فيها فساداً؛ قتلوا الكثير من أهلها، ونهبوهم سبعة أيام، وأخذوا مالاً لا يُحصى، وقبض هولاكو على الخليفة العباسي الملقب بـ"المستعصم بالله بن منصور (المستنصر) ابن محمد (الظاهر)،^(١٩) وأمر بأن يداس ويرقى إلى أن يموت،^(٢٠) وهكذا انتهى أمر الخليفة المستعصم فقليل فيه شعر متحكماً عليه:^(٢١)

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا أسفا على ما حلّ بالمستعصم
دَسْتُ الوزارة كان قبل زمانه لابن الفُرات فصار لابن العلقمي

فقطع هولاكو في احتلال بلاد الشام، لإذلال المماليك حكام مصر مستغلاً العداوة بين الملك الناصر بن محمد (العزیز) ابن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي^(٢٢) والمماليك، فأرسل الملك الناصر ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، وبصحبته بعض الأمراء، معهم هدايا لهولاكو ملتصين منه مساعدته، ضدّ المماليك، بسبب انتزاعهم السلطة الأيوبية منهم، فلم يعجب هولاكو الأمر، بل كان على الناصر في نظر هولاكو أن يقدمَ ممثلاً إليه شخصياً، لا أن يرسل مندوباً عنه، فأسرع هولاكو مستغلاً الفرصة، وسياسة "فرق تسد" سياسته لتفريق خصومه، فأرسل فرقة من عشرين ألف فارس إلى الشام، تمهيداً لاحتلالها، وقتل هولاكو الكامل بن الشهاب بن الملك العادل صاحب حصن ميّافارقين^(٢٣) لما اعترضه، ورفض تسليم الحصن لهولاكو، بل لأنه تجرأ أيضاً، وقتل رسول هولاكو إليه، وهو قسيس يعقوبي، ولم يكتف بقتله بل صلبه! وتجنّب الردّ على رسالة هولاكو، فما كان من هولاكو، إلا أن حاصر "ميّافارقين" وقضى على مقاومتها الضارية، وأدار هولاكو مذبحه رهيبه ذبح فيها المسلمين ذبحاً بحقه المعهود، وأبقى على حياة المسيحيين، ربّما لأنّه مسيحي، أو لإيقاع الفتنة، بين المسلمين والمسيحيين، أو لتشجيع المسيحيين على التعاون مع هولاكو، في نشوة نصره، أو استبقاهم: جزاءً وفاقاً لتعاونهم معه ضد المسلمين.^(٢٤)

وتعرض الملك "الكامل"، لما أُسر، لتعذيب قاس، وتنكيل متوحش، بأن أرغمه هولاكو على أن يأكل الكامل من لحم جسده حتى مات،^(٢٥) وقُطع رأسه وأمر بأن يُطاف به في البلاد للإرعاب،^(٢٦)

ومنحه الإمارة فصار أميراً، وتعني كلمة "بيبرس" الأسد الأبيض" في اللغة التركية.^(٨) شارك قائداً فذاً مع جيش المماليك في معركة المنصورة ضدّ الصليبيين في رمضان عام (٦٤٧هـ) الموافق لعام (١٢٤٩م) وفيها أسر الملك الفرنسي لويس التاسع، وسجنه في دار ابن لقمان، وخابت حملته، وقد وثقها سمّيه بيبرس المنصوري، في كتابه "التحفة الملوكية"^(٩) محتجاً بأبيات لجمال الدين يحيى بن مطروح معاصر الحدث، كما ترجم له القلقشندي^(١٠) منها قوله:

قلّ للفرنسيس إذا جئتُه مقالَ ذي صدقٍ صريحٍ نصيحٍ
أجرك الله على ما جرى من قتل عُبادِ يسوع المسيح
أتيت لمصرًا تبغي ملكها تحسب أن الرّمز يا طبل ربح
فساقت الحين إلى أدهم^(١١) ضاق به عن ناظرِكَ الفسح
وكلُّ أصحابك أوردتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
وفَقك الله لأمثالها لعلَّ عيسى منكم يستريح
إن يكني البابا بذا راضيا فربَّ غيبي قد أتى من نصيح
خمسون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيلاً أو أسيراً جريح
فقل لهم إن تضمروا عودة لأخذ ثأر^(١٢) أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان^(١٣) على حالها والقيّد باقي، والطواشي "صبيح"^(١٤)

ففي النصّ درج تاريخي لأبرز أحداث المعركة البحرية، بدليل "أدهم" التي تعني السفن لطلاء بواطنها بالقار منعاً من نفاذ الماء إليها، في المنصورة، بين الأتراك المسلمين، والفرنسيين بقيادة ملكهم المسى ريدا فرنس^(١٥) وقد أخذ أسيراً، كان ذلك في المنصورة، قرب دمياط، بعد وفاة الملك الصالح سنة (٦٤٧هـ) وفشل ولده توران شاه في القيام بواجب الجهاد، لردّ العدو على أعقابها، إلى أن قيّض الله لهم المماليك، فهزموا الفرنسيين وغنموا، وأحصى من خسائرهم خمسون ألفاً، بين قتل وجريح وأسير.

وقد كان للقائد بيبرس دور حاسم في النصر على لويس التاسع وجنده، ذلك أنه في صبيحة يوم الجمعة الموافق للحادي عشر من شهر شباط عقد بيبرس مجلساً مع مستشاريه، وقرّر الهجوم على بقية الجيش الصليبي ذي الفرق السبع، وترك لويس لنفسه فرقة احتياط خلفها، فما كان من بيبرس إلا أنه ابتدع فتناً جديداً في الحرب هو تعبته جيشه مقدمة وقلباً وساقاً، واستغنى عن الجناحين؛ لضيق المكان، من جهة، وليعطي فرسانه مجالاً للمناورة يميناً وشمالاً، من جهة أخرى، وبدأ يحرك قواته بإشارات متفق عليها، فمُنحه سرعة تقدم في دقة وانتظام، ثم وجه هجومه الأول نحو جناح لويس الأيمن المكشوف والمحروم من حماية الرماة، من الذين كانوا على الضفة الشمالية من دلتا النيل، وراح يسدد ضرباته في خفة وسرعة، ومهد لكل هجوم برمائية قذائف من النار الإغريقية، فدمر بيبرس فرقتين من سبع، هما فرقة كونت أنجو، والفرقة الثانية التي كانت بقيادة الكونت دي بوليتيه، وقد أسر الكونت في المعركة، مما يدلّ على عبقرية بيبرس العسكرية باعتراف عدوّه.^(١٦)

وقد أدرج القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" شعراً عن هذه الحادثة ولكنه لم يذكر الشاعر، لكن محقق كتاب التحفة عيّن

خلاصاً، ولا من مهابتنا مناصاً؛ فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرّمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفّع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تقفون عند كلام، وخنتم العهود والإيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالذل والهوان "فاليوم نُجزونَ عذابَ الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسقون".^(٣١) ثم ختمها بالسلام على من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى، متوعداً بالشعر أيضاً، فيه من معاني التيه والخطرة، ما لا يحتمله مسلم حرّ. طالباً من قطر الاستسلام الكامل، والانصياع لسيادة المغول القادمة، بحجة أن ذلك تنفيذ للإرادة الإلهية،^(٣٢) متضمنة شعراً مهدداً متوعداً بنشوة نصر^(٣٣)

ألا قلّ لمصرها هلاوون قد أتى
يصرير أعزّ القوم منها أذلةً
بحدّ سيوف تنتضي وبواتر
ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر

وكان هولاكو لما أرسلها إلى قطر على أبواب غزو الشام، لعوامل أعانته على إرسالها بتبجح تام منها؛ توافر قواعد غنية وقوية تحمي ظهر القوات التتارية المتقدمة غرباً مثل مدن العراق، والجزيرة بين نهري دجلة والفرات وجميعها محتلة وخاضعة لسلطان هولاكو، هذا أولاً، وثانياً وجود إمارات صليبية قوية معادية للوجود الإسلامي والعربي في المنطقة، تشارك المغول رغبتهم في ضرب دولة المماليك والقضاء عليها، وكانت إمارة عكا أخطرهما، وثالثاً وجود بعض القيادات المحلية تورطت لأسباب شتى؛ فأذعنّت لهولاكو، ووعدت بمساعدته على المماليك، ورابعاً وجود أقلبيات متعاونة قبلاً مع هولاكو، مثل النصيرية في نواحي اللاذقية والأمن في أعلى بلاد الشام، يمكن الإفادة منهم؛ بشأن ما فعلوه أثناء احتلال هولاكو دمشق،^(٣٤) فاستشار قطر أولي الشورى من الأمراء في الأمر، يلخص لهم الموقف قائلاً: "لقد توجّه هولاكو من توران إلى إيران بجيش جرّار، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلطين والملوك طاقة على مقاومته، فاستولى على جميع البلاد، وترك في هذه النواحي" كبتوبقانونيان" الذي هو كالأسد البصور، والتنين القوي في الكمين".^(٣٥) وبعد التشاور أوصاه بعض الأمراء بالجلء عن مصر (الوطن)، ومنهم من أوصى بالدفاع عن مصر فحسب؛ عند دخول المغول حدودها الإقليمية،^(٣٦) أمّا بيبرس فأشارَ بالمبادأة والتعرض ونقل المعركة خارج مصر، ولتكن في فلسطين، لأنها مفتاح مصر وبوابتها من الشرق، فاخذ قطر برأيه، الذي قال بيبرس فيه: "إني أرى أن تقتل الرُّسل ونقصد كتبغا متعاونين، فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين".^(٣٧)

كان ذلك بعد أن اتفق الأمراء على عزل السلطان المنصور علي بن المعز أيبك لصغر سِنه، وللظروف المحيطة، فعزل واعتقل الملك الصغير في قلعة القاهرة،^(٣٨) واختاروا المظفر سلطاناً، وبعدها استعدّ المظفر قطر للجهاد، معتمداً على أسس منها؛ أولاً توافر قوات كبيرة في مصر، يمكن أن تعبأ تعبئة عسكرية ومعنوية؛ تهيئ لها

فلما علم المماليك؛ ممن كانوا في دمشق، غضبوا ورحلوا إلى الملك المغيث ملك الكرك،^(٣٩) وعرضوا عليه الاستيلاء على مصر، فاستجاب لطلبهم، غير أن الأمر انتهى بعودة المماليك البحرية إلى مصر، منهم الظاهر بيبرس، الذي دخل بطاعة المظفر قطر، ولما علم قطر، بمسير نجدة التتار إلى دمشق، بعث برسالة إلى الملك الناصر يطمئنه، بأنه لا يريد منه ملكاً ولا ينازعه على كرسي آل أيوب، وأنه هو (يعني نفسه) ليس إلا نائباً للناصر في مصر، وأن الملك الناصر متى حضر إلى مصر، سيجلسه على دست المملكة، كان ذلك في رسالة مطمئنة له منها: "وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمتي ومن معي من العسكر إليك، نجدة لك، فإن كنت لا تأمن حضوري، أرسلتُ العساكر صحبة من تختاره".^(٤٠) مما يعني حرص المظفر قطر على الوحدة واستعداده للتنازل عن السلطنة، مقابل ألا يلجأ الناصر إلى هولاكو لنجده، أو الانضواء تحت بطشه، ضد المماليك وأتمته الإسلامية.

وتسارعت الأحداث، بقدوم العزيز نجل الملك الناصر من عند هولاكو ومعه رسالة منه، ملأى تهديداً ووعيداً وغرواً، منها: "الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أننا نحن قد فتحنا بغداد، بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنياتها، وأسروا سكاها، كما قال تعالى في كتابه العزيز "إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّ أهلها أذلةً وكذلك يفعلون".^(٤١) ثم تابع في رسالته: "واستحضرنا خليفته وسألناه عن كلمات، فكذب فواقعه الندم، واستوجب منه العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه نحيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نما ذكره وعظم قدره، ونجن نعوذ بالله من التمام والمال ثم ضمن رسالته أبياتاً من الشعر منها:

إذا تمّ أمرُنا نقصه
توقّ زوالاً إذا قيل تمّ
إذا كنت في نعمة فارهاً
فانّ المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة
فلم يدرب الموت حتى هجم

ثم ختم رسالته بأمر حازم جافٍ للناصر، بأن يسرع برجاله وماله وفرسانه بطاعة سلطان الأرض هولاكو،^(٤٢) فلما قرأ الناصر الرسالة ارتعب، وشرع الناس بالرحيل من دمشق إلى مصر، وسيّر الناصر حريمه إلى الكرك، وأرسل الناصر إلى المظفر قطر يطلب منه النجدة. وعبر هولاكو نهر الفرات إلى بلاد الشام، وأرسل إلى قطر رسالة وعيد، فيها غرور كبير، وتهيب منها قوله فيها: "من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطر الذي هو من جنس المماليك، الذين هربوا من سيوفنا، إلى هذا الإقليم: يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه، أننا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلّ به غضبه، فلکم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، واسلموا لنا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكّا، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأى أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلادٍ تحميكم؟ فما من سيوفنا

ذاته في عين جالوت، لأن عدده لا يتناسب مع مهمة كتبغا، إذ ساندته جموع مما تفرق من التتار في بلاد الشام،^(٥٠) يضاف إلى ذلك أن رتبة (نوين) تعني حرفيًا مقدم عشرة آلاف، وربما اعتمدها ابن العربي دليلاً، ونسي أنه عدد اصطلاحي، يزيد حسب المهمة المسندة، بدليل أنَّ جنكيز خان أنفذ مع سنتاي نوين (٢٠٠٠) عشرين ألفاً، لغزو سمرقند مع أنه (نوين)^(٥١) أيضاً من قبل، ومهمته أقلُّ شأنًا من مهمة كتبغا، أمَّا قوات المماليك فتقدر بـ (٢٤٠٠) أربعة وعشرين ألفاً^(٥٢) يضاف إليها المتطوعون، والقوات القبليَّة، وحملة الأثقال، بما يبلغ مجموعه العام نحو (٤٠٠٠) أربعين ألفاً.^(٥٣)

أمَّا أبرز أسلحة التتار، فالرِّمَّاح وهي سلاح الخيالة والمشاة، وكانت تمتاز بالقصر نسبة إلى الرِّمَّاح العربية، أما الزُّرْدُ فلم يكن لباسً الفارس التتري، وكانت خيولُهم صغيرة الحجم سريعة صلبة وشديدة، وكان جيشُهم يتألف من المشاة، وحاملي السيوف، والهاويات والدبابيس والرِّمَّاح، وناقلي المعدات، ولا تُعرف نسبة الخيالة إلى المشاة.^(٥٤) وكان الجيش المملوكي مثل الجيش المغولي، يتكون من مشاة وفرسان، وكان لكلِّ فارسي عددٌ من الأتباع المسلَّحين بالسيوف والرِّمَّاح، وكان الفرسان ينمازون بسرعة الحركة.^(٥٥)

أمَّا منطقة حشد "كتبغا" فكانت في سهل البقاع، وبعض البحوث قال بل هي في جنوب بحيرة طبريا،^(٥٦) وهذا الموقع لا يتيح لـ "كتبغا" أن يستخدم الطرق الداخلية لبلاد الشام الداخلية، بسرعة وكفاءة، واتخذ كتبغا منطقة غزة منطقة حشد أمامية، لتكون طليعة الجيش المغولي.^(٥٧) أمَّا المماليك فاتخذوا الصالحية "قرب القاهرة"^(٥٨) منطقة حشد، وفيها تم استقبال القوات من مختلف صنوف القتال، وفيها تمَّ تجهيز أدوات القتال والنقل، وما يحتاجه الجيش من معدات وخدمات أخرى، وفيها تمَّ تعزيز المعنويات للإيمان بنصر الله تعالى.^(٥٩)

أمَّا حركة مسير قطز فكانت عبر شبه جزيرة سيناء، على طريق صحراوية حديثة جنوبي الطريق التجارية المألوفة، على ساحل البحر المتوسط، لإخفاء تحركاته^(٦٠) ودفع قطز- رحمه الله- بيبرس قائدًا لمقدمة جيشه من الخيالة، فتقدَّم بيبرس بسرعة، وخفة فائقة، في طرق آمنة، حتى وصلت قوات بيبرس إلى غزَّة، في الأسبوع الأول من رمضان سنة ٦٥٨هـ^(٦١) فحرَّز بيبرس غزَّة من التتار، وانسحب قائدها "بايدر" المغولي إلى الشَّمال، باتجاه نهر العاصي في رواية^(٦٢) فارتفعت معنويات المسلمين، وحصل بيبرس على روح المبادأة، وهُدِّد مواصلات كتبغا التتري، وستر تقدُّم حركة الجسم الرئيسي بقيادة قطز، واستطلع بيبرس قوات التتار، وعرف مدى استعدادهم للمعركة^(٦٣) من جهة، وتحرك باتجاه عكَّا من أخرى فحقَّق بيبرس أهدافًا منها: أولاً تركَّ قوات "بايدر" تراجع مهزومة، بينما قام بيبرس بمباغطة الجيش المغولي في شمالي فلسطين، وثانيًا حالت حركة بيبرس دون إجراء تعاون بين قيادات المغول، والقيادات الصليبية على ساحل البحر المتوسط، وثالثًا حيَّد الصليبيين من أن يقوموا

الوقوف في وجه الهجمة التتارية الشرسة، وثانيًا معرفة القيادة المصرية بالطرق الداخلية لبلاد الشام تُمكنها من أن تسلك الطرق المفاجئة للتتار، أو تتصدَّى لحركاتهم من أي طريق سلَّكوها، لخبرتهم في حروب متعددة؛ خاضوها في زمن الأيوبيين، وثالثًا توافر عناصر استخبارية عربية؛ تُعَيِّنهم على رصد حركات المغول خاصةً في فلسطين، وقد كانوا مرتبطين إداريًا وروحانيًا إسلاميًا بسلطتها المركزية في القاهرة، برغم من تعرض إقليمهم "غزة" للاحتلال التتاري.^(٦٤)

ولما لم يجد هولاكو ردًّا حاسمًا على غاراته، أرسل هولاكو أميره "بايدر" فاحتلَّ غزة واستمكن بها،^(٦٥) ورابعًا، انجياز السكَّان العرب من أهل المدن والقرى للجانب المصري، ونفوذهم الشديد من الاحتلال المغولي ووسائله، وخامسًا قصر خطوط الإمداد المصري عند وجوده في فلسطين من مناطق تحشد المماليك في الرِّيدانية قرب القاهرة والصالحية شرقها، قياسًا بخطوط إمداد المغول من أربعة آلاف ميل وزيادة، وسادسًا، عدم وجود خيار آخر للمماليك غير الحرب، إذ لم تعد لهم قوى خارجية تمُدُّ لهم يد العون.^(٦٦)

واستعدَّ الملك الناصر في دمشق أن يقبِّم المساعدة للمظفر قطز، واعتبرت قطز مشاكل مالية، فجمع الفقهاء واستشارهم، منهم العزُّ بن عبد السلام^(٦٧) فأوجب العزُّ قتال التتار، وأجاز أن يأخذ السلطان المال من الرعية، بعد أن يستنفد ما في بيت المال من مال، أما جذب قطز الأمراء للجهاد، فلسياسته الحكيمة وخطورة الوضع، وخطبه الدينية المتحمسة شأنه في إحداها: "يا أمراء المسلمين، لكم زمانٌ تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للجهاد كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبي، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته، فإنَّ الله مطلعٌ عليه، وخطيئته حريمُ المسلمين في رقاب المتأخرين".^(٦٨)

وكان يكثر الالتقاء بالأمراء المخلصين، لحنهم على الجهاد، وكان يجذُّ حماسة من أنصاره؛ فشكَّلوا سلاحًا أدبيًا على المترددين، فكسبهم قطز جميعًا لصالح الجهاد في سبيل الله.^(٦٩) وكان قطز يخرج أحيانًا إلى أمرائه ليلاً، يحثهم على الجهاد بقوله: "أنا خارجٌ ألقى التتار بنفسي".^(٧٠) وتوجه قطز- رحمه الله تعالى - إلى الشعب مباشرةً بنفخ فيهم جذوة الجهاد، بغية خروجهم للجهاد في سبيل الله، ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم،^(٧١) ولهذه الأسباب وغيرها استطاع قطز أن يحبِّب الجهاد إليهم، فوعده به وقد صدقوا يوم النزال.^(٧٢) ثمَّ أعلن المظفر قطز لما قتل رسل هولاكو حالة النفير العام، ولم يكن للمصريين عهد به من قبل.^(٧٣)

أمَّا المقارنة بين القوى، فيمكن أن نبدأ بالمغول إذ قدَّره المؤرخ الأرمني ابن العربي بعشرة آلاف فارس،^(٧٤) وفي تقديره ذاك حيف وعدم دقة لأسباب منها أن رتبة كتبغا هي (نوين) التي تناط بها المهمات الكبار، وهي أعلى رتبة عسكرية، وكان يتلقَّى الأوامر من هولاكو، وهو صديقه وصهره، فلا يعقل أن يتولى كتبغا جيشًا صغيرًا بهذا العدد لمهمة كبيرة، وإذا أخذنا برأي ابن العربي أوليًا فيمكن أن يكون ذلك عندما دخل بلاد الشام، ولكنه ليس العدد

بتطويق مشترك مع المغول، لقوات المماليك التي يقودها قطز، فوصل الجيش المملوكي سالمًا إلى عكا، وبُذلت جهود دبلوماسية للحصول على حياد الإمارة الصليبية، ولوّح المماليك للصليبيين بإمكانية الإفادة المشتركة من الغنائم المغولية التي سيبيعها المماليك للصليبيين بعد هزيمة المغول الوشيكة على أيديهم.^(٦٤)

وما إن سمع "كتبغا" نبأ وصول المماليك إلى عكا من جهة، وهزيمة "بايدر" من غزة من أخرى، حتى استشاط غضبًا، وبدأ يُرغي ويزيد حنقًا وغضبًا، وبدأ بالتحرك من بعلبك باتجاه مدينة دمشق التي استعرت فيها ثورة شعبية ضدًا! حامية المغول فيها، مما أجبره على تغيير حركة كتبغا من شمال فلسطين لملاقاة المماليك في عكا، إلى حركته إلى دمشق لقمع حركة التمرد فيها، فصرفه الأمر عن عكا إلى دمشق، ما أفسح المجال للمماليك أن يخلوا عكا بسرعة في اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ باتجاه الجنوب الشرقي إلى بيسان، فوصل المماليك عين جالوت في اليوم الرابع والعشرين من رمضان الموافق لليوم الثاني من أيلول سنة ١٢٦٢م، حيث اختار المماليك ساحة المعركة المقبلة،^(٦٥) وأفرز قطز مجموعة من الخيالة بقيادة بيبرس لتعقب فلول "بايدر" المهزوم من غزة، من جهة، ولاستطلاع قوة المغول المهاجمة من ثانية، ولثالثة هي لاستدراج قوات المغول بقيادة كتبغا نحو عين جالوت غربي بيسان.^(٦٦)

أما وصف طبيعة المنطقة في ساحة عين جالوت، فتقع بين سلسلي جبال الجليل، وجبال نابلس، وفيها تمضي طرق المواصلات بين بيسان وعكا، وعلى ذلك: فالسيطرة على عين جالوت، تعني السيطرة على المنافذ المؤدية إلى فلسطين، والناصره شمالًا، وجنين جنوبًا وعكا غربًا.^(٦٨) وفي منطقة عين جالوت، جبل يدعى "الدحي"^(٦٩) يعترضه طريق داخلي إلى الوادي، وثمة جبل "جلبوع"^(٧٠) المتدرجة روابيه من وادي الجالوت، وهناك كان مزرعة قصب بالقرب من ساحة المنازل، وما تزال المزارع المماثلة لها ماثلة، وكانت هذه الجبال والمزرعة تشكل للمماليك تخفية وتسترًا، مما أودت بإيقاع جيش كتبغا في كمين، وأعاق حركتهم في مزرعة القصب، وتم أسر كتبغا في مزرعة القصب، ثم قتل فيها، كما هيأت طبيعة المنطقة إلى الإطباق على جيش كتبغا، بعد أن جرّهم بيبرس بخدعة منه، إذ اشتبك مع طلائعهم، ثم راوغهم منسحبًا لخداعهم، فجرهم لمنطقة تقتيل، فتابعوه إلى كمين أعدّه لهم بذلك، مستغلًا طيات الأرض، ومنابت القصب، من جهة، ومن أخرى، أطبق عليهم جيش قطز مستفيدًا من موقعه، ما أدّى إلى تطويق جيش كتبغا وهزيمتهم بعد أن وقعوا في ساحة المعركة بين قتلى وأسرى.

وتفصيل ذلك، أنّ قطز قسّم جيشه جناحين، وفرقة قلب بقيادة قطز، أمّا الجناحان فغير متكافئين، حجماً وسلحاً، فالجناح الأيسر يتشكّل من فرقة خفيفة، من الخيالة بقيادة بيبرس، أمّا الجناح الأيمن، وهو الأكبر فكان يتألف من المشاة والخيالة، وكان مختفيًا وراء أكمات جبل الدحي، ولم يبرز دوره إلا في الساعات الأخيرة من نهار يوم الجمعة الموافق لليوم الخامس والعشرين من

شهر رمضان المعظم سنة ٦٥٨ هـ، الموافق للثالث من أيلول سنة ١٢٦٠م.^(٧١) إذ بدأ يغادر مواقعه الأولى في الوادي الصغير، ويمضي متقدّمًا في داخل الوادي الرئيس، ملتفًا من أمام تل القيادة، بحيث جعل الجبل محورًا ثابتًا لحركته، ولإيقاف انسحاب الجناح الأيسر^(٧٢) بقيادة بيبرس، ولتثبيت الجبهة أمام المغول، وبعدها أعطى قطز إيعازًا لفرقة القلب بمغادرة مواقعها في أكمات جبل الدحي، وتعزيز الجناح المذكور،^(٧٣) فهبطت تلك الفرقة ومن ضمنها مقر القيادة إلى الوادي، وقاتلوا بشجاعة، فأوقفوا التراجع، وبدأ: القلب والجناح الأيسر بالتعرض معًا، في حين كان الجناح الأيمن أكمل التفافه على مؤخرة جيش كتبغا في مدخل الوادي الرئيس، فأطبق على جتي الوادي بينما أطبقت باقي الجبال أو أكماتها على الجهتين الأخريين، فأغلق على جيش كتبغا من الجهات الأربع، وساعد ضيق الوادي على إتمام عملية التفاف قوات المماليك، مما دفع قوات المماليك المتدربة على المعارك الثابتة، من خوض معارك ضارية، وبعد قتال شديد أبعد من المغول ما لا يحصى عدده^(٧٤) وبين تقرير رفع لهولاكو عن خسائر المعركة أنّ "أكثر التتار قد قتلوا وأسروا من بقي".^(٧٥)

ولم يستطع المغول تنظيم انسحابهم من المعركة، لأنّ كتبغا قُتل فيها،^(٧٦) وأسر أبنه،^(٧٧) وقتل قطزُ الملك السعيد ابن الملك العادل بن أيوب لأنه ساعد التتار، وكان فاسقًا^(٧٨) بعد أن وقع أسيرًا في جالوت، واستطاع بيدرا أن يتسلل بعدد من جنوده، إلى خارج ساحة المعركة، تاركًا بقية جيشه: تواجه مصيرها بنفسها، وتسلق بعض الجنود المغوليين، رؤوس الجبال المجاورة، واعتصم بعضهم الآخر بالتل المجاور للموقعة، فأحدثت بهم قوات المماليك، وما برحوا حتى أفضوهم قتلاً ونجا من نجا،^(٧٩) واختفى فوج من خيالة المغول في مزرعة قصب، بالقرب من ساحة القتال، فأمر قطز جنوده "بأن يضرمو النار فيها، فأحرقوهم جميعًا"،^(٨٠) وما أن انتهى مساء يوم الجمعة من رمضان، حتى انتهت أشكال المقاومة التتارية، وأعلن اندحار المغول، وأعلن النصر الإسلامي الكبير عليهم.^(٨١)

أمّا مطاردة فلولهم، فكان إلى بيسان^(٨٢) إذ حشد المغول لمعركة أخرى لوجود قوات مغولية احتياطية، لم تشترك في عين جالوت، وبينما كانت تحاول إعادة تنظيمها، فاجأتها قوات المماليك، بتعرض كبير وسريع وصف بأنه أشدّ من عين جالوت، فانتصر المماليك وقتلوا عددًا من أكابر التتار، ولكن بعد أن تزلزلوا،^(٨٣) واتجه قطز إلى بيسان سالكا الطريق المحاذي لبحيرة طبريا، ثم عبر نهر الأردن، متجهًا إلى دمشق، في اليوم الرابع من شوال بعد عشرة أيام من انتصارهم على التتار، فاستقبل بحفاوة بالغة، فأنجز بدخوله دمشق، المرحلة الثانية من تحرير بلاد الشام من المغول، أمّا المرحلة الثالثة فطردهم من بلاد الشام والجزيرة، إذ أوكل المهمة إلى ركن الدين بيبرس، وفرقته، فتقدم إلى حمص، وتعرض على حاميتها المغولية، وانتصر عليهم فقتل منهم وأسّر الباقي، واتجه إلى حلب وفعل فعلته بها شأنه في حمص، ففرّ المغول باتجاه ساحل البحر

المتوسط، إلا أن الأنصار قبضوا عليهم^(٨٤) وبعد شهرين من معركة عين جالوت، حاول التتار في إقليم الجزيرة الهجوم على حلب، إلا أن أميري حمص وحماة ردا التتار على أعقابهم، في معركة قرب حمص، وبعدها استقرت الأوضاع وجرى دفع المغول إلى شرقي الفرات^(٨٥) وقد خلد الشيخ شرف الدين المنصور نصر قطز في عين جالوت وأبرز مشاهد من تحريره حماة والمعة بعد أن نازل التتار وهزمهم شرهزيمة منها قوله:^(٨٦)

رُعت العدى فضمنت تلّ عروشيها
ولقيتها فأخذت تلّ جيوشها
نازلت أملاك التتار فأنزلت
عن فحلها وعن اكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كُماها
حصد المناجل في بيبس حشيشها
فُقت الملوكة ببذل ما تحويه إذ
خُتمت خزائنها على منقوشها
وطويت عن مصر فسبح مراحل
ما بين بركيها وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها
من رومها الأقصى إلى احبوشها
فرشت حماة لوطء نعلك خدّها
فوطنت عين الشمس من مفروشها
وضربت سكّنها التي أخلصها
عما يشوب النقد عن مغشوشها
وكذا المعرة إذ ملكت قيادها
ذهشت سرورا سارفي مدهوشها

(٢) بيبرس السلطان بعد معركة عين جالوت

بينما كانت مدينة القاهرة تتّين لاستقبال قائدها المظفر قطز قاهر المغول، فوجئ المماليك بمقتل قائدهم، وأعلن نبا تسلطن الظاهر بيبرس، كما يأتي لاحقاً، وقد سجل حسين الكردي بعض مزايا المظفر قطز بعد انتصاره على التتار، في عين جالوت، وأنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له من هولاكو بعد انتصاره على كلّ من هاجمه ومن أربعة آلاف ميل.^(٨٧)

هلك الكفر في الشام جميعا واستجدّ الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر البطل الأبرّ وع، سيف الإله عند نهوضه
ملك جاءنا بحزم وعزم فاعتزنا بسنّيه وببيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا دائما مثل واجبات فروضه

وقال أبو شامة المقدسي في هذه المناسبة: "ومن العجائب أن التتار كسروا واهلكوا بأبناء جنسهم من الترك" وقال في ذلك:^(٨٨)

غلب التتار على البلاد فجاءهم
بالشام أهلهم وبدد شملهم
من مصر تركي يجود بنفسه
ولكل شيء أفة من جنسه

وبتفصيل؛ فما كاد قطز يصل إلى دلتا النيل وهو في طريقه إلى دست التتويج، حتى بدأ المنادي يطوف في الشوارع، يسأل الناس أن يترحموا على المظفر قطز، ويطلب منهم أن يدعوا للسلطان الملك ركن الدين الظاهر بيبرس.^(٨٩) ويعتقد بأن الظاهر بيبرس قتله، أثناء عودته إلى مصر، قبل أن يتوج ملكاً، ويشيع ذكره، ويصعب قتله، ويعزى أيضاً لأنّ المظفر قطز لم يعين بيبرس نائباً على حلب، كما كان وعده، فأوغر صدره عليه، وكان كل منهما يحاذر الآخر، فكان هذا حافزاً من حوافز بيبرس لإكمال المؤامرة، فقتله بمكيدة لما ابتعد عن معسكره خارجاً إلى صيد أرانب في ٢٣ تشرين الأول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م فتقدم أحدهم منه كأنه يهيم بتقبيل يده، وأمسك بيده، فاندفع بيبرس فغرس سيفه في ظهر قطز، فقتله بمكيدة لما أعلن المتآمرون نبا مقتل السلطان قطز، وتتويج الظاهر بيبرس ملكاً على بلاد مصر والشام.^(٩٠)

(٣) تصدّي بيبرس للتوسع التتاري

ما إن سمع التتار بمقتل قطز حتى ظنوا فتنة وقعت، أو أوشكت أن تقع بين الأمراء المماليك، فاغتنمها ببداراً التتاري فرصة في ظنه فهاجم البيرة،^(٩١) وانتصر على نجدة أرسلها الملك السعيد من حلب لقلّة عدد الجند المسلم، فندم الملك السعيد على مخالفته آراء أمرائه، فجفلت حلب، وأضربت، وتوجّه الناس نحو الجنوب، في حين وصلت رسالة من البيرة تذكر أنّ طائفة من العدو التتاري اتجه نحو منبج،^(٩٢) فهاجم الظاهر بيبرس البيرة وحاصرها، ثمّ هاجم التتار على نهر الفرات، فأعدّ سفناً لازمة لعبوره، وحمل خشباً كافياً على ظهور الحمال، بعد أن استعلم خبر التتار في منبج، وقدروا قواتهم بنحو ثلاثة آلاف فارس على شطّ الفرات، وهناك أعدّ المراكب وشحنها بالمقاتلين واشتبكوا مع التتار، واقتحموا نهر الفرات، وعبره الظاهر بيبرس بعضه سباحة إلى الضفة الشرقية، فانهزم التتار بعد معركة بالسهم، فصلى الظاهر بيبرس ركعتي شكر لله تعالى، وورّع جنده شرقيّ الفرات ففتلوا من التتار عدداً، وأسروا عدداً آخر، وانهزم البواقى فغنم المسلمون من أثقالهم وأقواتهم كثيراً، واستولى أهل البيرة على كل ذلك فاكتفوا بالغنائم بعد أن حوصروا فترة من الزمن، ثم عاد الظاهر بيبرس إلى الضفة الفرات الغربية، ثم سار إلى البيرة وخلع على نائبها وترك بها جماعة من عسكره لحفظها، وعاد الظاهر بيبرس إلى دمشق وبين يديه من أسرى التتار عدد كبير.^(٩٣)

وقد خلع بيبرس على الأمراء المجاهدين خلعة وتشريفات بلغت نحو (٣٠٠٠٠) ثلاثمائة ألف دينار، فخلد شهاب الدين أبو الفناء، كاتب الإنشاء انتصار بيبرس على التتار بعد أن خاض نهر الفرات على سفن وخيل وسباحة وهو يتابع التتار المهزيمين من غربي الفرات إلى شرقيه بقصيدة منها:^(٩٤)

خُضت الفرات بسايح أقصى مئى هُوج الصبّا من نعله آناز
حملتك أمواج الفرات ومن رأى بحرا سواك ثقلة الأنهار
وتقطعت مزقا ولم يك طودها إذ ذاك لا جيشك الجرّار

وسلمت كثير من الحصون الصليبية وسارع أمراء الصليبيين في عقد معاهدات صلح معه، إذعانا بالخضوع والطاعة، وانتصر على الروم في معركة ابلستين^(١٠٤) وقد مدحه شهاب الدين أبو الفناء محمود في أبيات منها:^(١٠٥)

سُرْتُ من حى مصرَ إلى الرُّوم فاحتوثُ
عليه وسوراه الظُّبا واللهاذمُ^(١٠٦)
بجيش تظل الأرض منه كأنها
على سعة الأجزاء في الضيق خاتمُ
كتائب كالبحر الخضم جياذها
إذا ما تهادت موجه المتلاطمُ
يحيط بمنصور اللواء مظفرُ
له النصْر والتأييدُ عبدٌ وخادمُ

إن الشاعر يحدد حركة الظاهر بيبرس من مصر إلى بلاد الروم، ومعه سوران من أسلحته هما: السيوف القاطعة والرماح المشرعة، وجيشه ضخمة كبير تضيق الأرض به على سعتها، وكتائبه كأموج البحر المتتابعة، تحيط بعلم المسلمين المظفر المرفوع يخدمه نصر وتأييد.

(٥) إصلاحات بيبرس الداخلية

لقد منع بيبرس بسرعة حركته بين الصليبيين والتتار التنسيق بينهم، ومن ناحية أخرى استفاد من سرعة حركته وتنقله بين المدن أسبوعياً، بتفقد شؤون مملكته، وللإطلاع على أحوال رعيته في كل من مصر وبلاد الشام، والحجاز، ولتأدية مناسك الحج والعمرة، فكان يرى في لباس الإحرام، حيناً أو يرى حيناً آخر، في لباس الحرب مستعداً للجهاد، أو يرى متحركاً بين المدن ليدرك صلاة الجمعة في ما يزور منها، شأنه في الكرك ودمشق وحلب كما يقول الشاعر في ذلك:^(١٠٧)

بيناً تراه في الحجاز إذا به في الشام للحج الشريف يقسُ
وتراه في حلب يدبّر أمرها وتراه في مصر يذبّ ويحرسُ
وتراه في حجّ عليه عباءة وتراه في غزو عليه الأطلسُ

كما كان يقوم بتدريب جنده في أوقات الاستراحة، فقد استبدل الظاهر بيبرس الأغاني بالتدريب على رميات الأسلحة المختلفة من قوس ومبارزة بالسيوف، أو تركيز خيل استعداداً للحرب في حالي السلم والحرب. يذكر أنه سنة (٦٧٢هـ) أرفف أيقا ملك التتار منه، ولم يجزّ على مهاجمة البلاد الشامية، فشهد له بعض الشعراء بذلك فيقول:^(١٠٨)

ذاك يومٌ لها عن اللهوفيه برنين القسي عند المراماة
وركن الجياد في الميدان بصليلى مرهفٍ وصهيل
وتغنى عن مطربات الأغاني كل أفعاله إلى الجدّ تعزى
وركض الجياد في الميدان لا تراه في السلم والحرب إلا
وجوادٍ ورنّة لأذان هكذا تفعل الملوكة فعلا
يوم سلم أولاً، فيوم رهان دام في رفعة ونصر عزيز
بين رمح وصارم وسنان
شائعا حمدة بكل مكان
ما تغنت حمائم الأغصان

وقد أتم ابن كثير القصيدة، وعرف بالشاعر وهو القاضي شهاب الدين محمود الكاتب، وأولاده يقال لهم بنو الشهاب محمود في خوض الظاهر بيبرس الفرات بجيشه^(٩٥)

سر حيث شئت لك المهيمن جازُ واحكمْ فطوع مرادك الأقدارُ
لم يبق للذين الذي أظهرتهُ يا ركنه عند الأعادي ثارُ
لما تراقصت الرؤوس تحركت من مطريات قسيك الأوتارُ
وتقطعت فرقا ولم يك طودها إذ ذاك الا جيشك الجرازُ^(٩٦)

ويبدو أن هذه المعركة النهرية قد شهد لها غير شاعر، إذ ثمة شاعر شهد تسكير الفرات بالقنا والصّوارم، فأوقف التيار من بدء دخول المسلمين لحي عودتهم بالغنائم التتارية من شرقي الفرات فيقول:^(٩٧)

ولما تراءينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقنا والصّوارم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حين غدنا بالغنى والغنائم

وشهد للظاهر بيبرس شاعر آخر اقتحامه نهر الفرات ليطفى حرارة قلبه من المغول فيقول في نتفة (بيتين):^(٩٨)

الملك الظاهرُ سلطاننا نفديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ليطفي به حرارة القلب من المغل

أما موقفه من تحالف التتر مع الفرنجة بساحل البحر الأبيض المتوسط، فكان سنة ٦٦٨هـ إذ علم الظاهر بيبرس بغارة التتر على منبج قرب نهر الساجور "شرقي منبج"، فأمر الظاهر بيبرس أحد قواده أن يربط في الشام، ويكون على أهبة الاستعداد لمنازلة التتار، ولم ينتظر الظاهر بيبرس في مصر، فتحرك من القاهرة في نفريسير إلى غزة ثم إلى دمشق فوافته الأنباء أن التتار انهزموا لما سمعوا بحركة الظاهر بيبرس، "فكان اسمه يرد الأعداء من كل جانب"،^(٩٩) وعلم بيبرس بمراسلة أيقا بن هولكو الفرنجة للهجوم على المسلمين، وأنهم قادمون إلى سيس^(١٠٠) للاشتراك في مهاجمة المسلمين، لكن ربحاً صرصراً عاتية هبت على سفنهم فأغرقها،^(١٠١) ودخل الظاهر بيبرس بلدة سيس بعد أن عبر النهر الأسود في أرمينية، على سفن نقلت أخشابها الجمال، ودمر قصر الملك فيها ثم بعث قوات أخرى له إلى طرسوس وإلى بلدة إياس في أرمينية، فغنموا وقتلوا وأسروا ثم عاد بيبرس إلى دمشق.^(١٠٢)

(٤) بيبرس وإزالة الوجود الصليبي من بلاد الشام

كان للصليبيين بالشام عدة مدن وإمارات صغيرة من أيام صلح الرملة وقد اتسعت هذه الأملاك عندما وقع الخلاف بين أمراء الشام ومصر قبل معركة "عين جالوت" فلما تولى بيبرس عمل على تصفية الوجود الصليبي بالشام، فاستطاع أن يطهر كلاً من قيسارية وأرسوف،^(١٠٣) وصفد، وقتل كل فرسان المعبد "الدواية" المتحصنين بها، وطهر كلاً من يافا وطبرية من الوجود الصليبي.

أما أعظم انتصاراته على الصليبيين فكان فتح أنطاكية، وهي أكبر المدن المحتلة بالشام وكان حاكمها الصليبي من أشد الناس أذية للمسلمين فاستطاع بيبرس فتحها سنة ٦٦٥هـ، وبفتحها فتحت

١/٥- حربه للباطنية وقمع ثورة الكوراني

كانت الشام ومصر أرض الدولة العبيدية المسماة "الفاطمية"^(١٠٩) قرابة القرنين من الزمان معا جعل هذه البلاد مرتعا خصبا للفرق المنحرفة، وماوى الضالين والمنحرفين خاصة أتباع المذهب الإسماعيلي، وكانت لهم بالشام العديد من القلاع والحصون والقرى، وكانوا أشد الناس ضررا على الإسلام ووعونا للصليبيين والتتار على المسلمين، وتخصصوا في اغتيال قادة المسلمين وعلمائهم حتى صار مجرد ذكر اسمهم يثير الرعب في قلوب الناس، ولم يكن لهؤلاء أن يغيبوا عن حسابات الظاهر بيبرس الذي رأى من قبل مدى فداحة خطورتهم على الأمة المسلمة فشدد الحصار عليهم واقتحم حصونهم عدة مرات واستخدم معهم الخداع والاستدراج، حتى أخرج معظمهم من حصونهم وقد وظف مع عامتهم أسلوب الجذب والإقناع والاندماج في المجتمع المسلم حتى أزال خطرهم.

وقد استطاع بيبرس بفضل الله ثم ببقظته وسرعة حركته، أن يحبط محاولة الباطنية إحياء الدولة العبيدية الرافضية من جديد، عندما ظهر رجل فارسي نيسابوري بأرض مصر اسمه "الكوراني" يدعو "للفاطميين" ويجمع الناس من أجل ذلك، وقد أعلن العصيان المسلح وهاجم مخازن السلاح والخيول واستولى عليها، فتمكن الظاهر بيبرس بقواته الخاصة من القضاء على حركة التمرد، وأسر الكوراني ثم صلبه على باب زويلة في القاهرة وشرّد أتباعه وقضى على فتنته.^(١١٠)

٢/٥- إعادة الخلافة الإسلامية

عندما احتلّ التتار بغداد زين لهم الوزير الشؤم ابن العلقمي الرافضي قتل الخليفة المستعصم، أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر العباسي^(١١١) لتسقط بقتله الخلافة العباسية، وذلك في اليوم الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ، حيث ظلّ العالم الإسلامي بلا خلافة ولا خليفة طيلة ثلاث سنوات، حتى تولى بيبرس حكم الديار المصرية والشامية، وعمل على إعادة الخلافة العباسية مرة أخرى، فبحث عن رجل من نسل العباس فوجد الأمير أبا القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر العباسي، وكان معتقلا في بغداد، وهو أخو أمير المؤمنين "المستنصر" باني المدرسة المستنصرية الشهيرة، فاستقدمه إلى مصر، ودعا الناس لبيعته، فبايعه الناس في يوم مهيّب، ذكرّ الناس بأجدادهم السابقة، وأفراحهم الماضية، وكان هذا العمل على رمزيته، وقلة أثره في السلطة واتخاذ القرارات إلا أنه كان له كبير الأثر في نفوس المسلمين في كل مكان إذ سرت روح الوحدة الإسلامية من جديد بين أفراد الأمة.^(١١٢)

٣/٥- غيرته على المسلمين

ومما كان يميز بيبرس عن غيره من ملوك المسلمين في عصره، ولأعوام شدة عنايته بحرمات المسلمين ودمائهم وحقوقهم بصورة أعادت للأذهان أيام الإسلام الأولى وعهود الراشدين، وأيام العز والتمكين وذلك في مواقف كثيرة منها كان لا يصبر على أذى المسلمين، ومن يتعرض لهم، فقد ذكروا له عندما فتح مدينة

'صفد' ووجد بها كثيرا من أسرى المسلمين، ذكروا له أنهم قد وقعوا في الأسر بسبب أهل قرة "فأرا" وهي قرية من نواحي أرمينيا وكانوا يخطفون رجال المسلمين ونساءهم ويبيعونهم عبيدا للفرنج، فعندها؛ قرر الهجوم من فورهم على أهل هذه القرية المجرمين فدمرها تدميرا، وجعل أهلها بين قتل وأسير وأخذ ثار المسلمين وشفى غليلهم.

ويقال مثله، فقد اعترضت طريقة امرأة من المسلمين فقالت له يا أيها الأمير، إن ولدي قد دخل مدينة "صور" بالشام تاجرا فأخذه ملك صور الصليبي فغدر به وقتله وأخذ ماله، كان ذلك أثناء عودته بالجيش من إحدى الغزوات، وفي الحال غير بيبرس مسار جيشه وهجم على مدينة "صور" وأوقع بها بأسا، فأرسل إليه ملكها يقول له ما سبب هذا؟ فقال له: "لغدرك ومكرك بالتاجر فلان حتى لا تعود أنت وغيرك لمثلها".

وأسر له يوما أمير من أمرائه هو "سنقر الأشقر" فأبدله بعدد كبير من الأسرى الفرنج منهم ابن ملك السيس الصليبي. وأعدم بيبرس الأمير عمر بن العادل الأيوبي، أمير حصن الكرك، ذلك لأنه خان المسلمين خيانة عظيما، وتعاون مع التتار أعداء الإسلام وكاتبهم ودلهم على عورات المسلمين، واستدعاهم للهجوم على الشام مرة أخرى، ووعدته التتار بأنه سيكون نائبا لهم على الشام فاستفتى بيبرس الفقهاء في أمره فأفتوا بقتله فأعدمه جزاء لخيانته للمسلمين. وتبدو غيرته أيضا عند حصاره أحد حصون الصليبيين بالشام حين قتل جندي مسلم، فلما أراد أهل الحصن أن يستسلموا رفض عقد التسليم حتى يدفعوا دية الجندي المسلم وقال لهم: "أنتم قتلتم جنديا من جيشي وأريد دية مائة ألف دينار".^(١١٣)

٤/٥- قمعه للمفسدين

كان بيبرس يكره الفساد والمفسدين بشدة، إذ أمر بيبرس بإراقة الخمر وتحريم الاتجار فيها في شتى نواحي مصر، ومن ضبط بتصنيع الخمر سوف يقتل، كما منع الخواطي والغانيات والمفسدات من الفاحشة وسلب أموالهم من بيع الأغراض، وأمر بتزويجهم جميعا بعد التوبة والإنابة فحفظ الديار المصرية من أمراض الخمر والزنا فقليل فيه شعر.^(١١٤)

ليس لإبليس عندنا رُب
فغيرُ هذي البلادِ مأواه
حرمته الخمر والحشيش معا
أعدمته ماء ومرعاه

(٦) سياسة بيبرس الخارجية

١/٦- تجنيده بركة خان لإفشال هجمات هولاكو على بلاد

الشام من جديد.

كانت للهزيمة الهائلة التي نالت التتار بعين جالوت أشد الأثر في نفوس قادة التتر خاصة هولاكو الذي أصرّ على معاودة الكرة مرة بعد مرة، وهنا برز ذكاء بيبرس الفذ عندما استطاع استمالة أحد كبار قادة التتار وهو بركة خان وهو ابن عم "هولاكو"، وكان "بركة

أمور، ثم أخرج الظاهر بيبرس فتاوى الفقهاء بخيانتهم، وأحضر الرُّسل الذين كانوا يحملون الرسائل إلى التتار ومنه، واعترفوا بذلك، ثم أعدمه.^(١١٨)

(٧) بيبرس والبناء المعماري^(١١٩)

من يقرأ سيرة الظاهر بيبرس وحياته الجهادية، يظن أنه لم يكن له باع في جانب الاهتمام العمراني والحضاري، وهذا يخالف الواقع تمامًا فقد كان معنيًا ببناء السدود والقناطر على الأنهار، وتمهيد الطرق، وفتح الأسواق لترويج التجارة، واهتم ببناء المستشفيات والخانات وأماكن ضيافة المجاهدين والمسافرين، وضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة، ومنع العملات الزائفة لسلامة التعاملات بين الناس، وكان أول من نظم القضاء، فجعل لكل مذهب قاضيًا مستقلًا.

ولكن أكثر ما كان يهتم به ويوليه جل عمله الحضاري والعمراني هو بناء المساجد، وصيانتها فقد جدد بناء المسجد النبوي الشريف بعد احتراقه.^(١٢٠) وأمر بإخراج كل المجاورين من المسجد الأموي بدمشق وقد ضيقوا على الناس من ملازمهم للمسجد بصفة مستمرة فاتسع المسجد على الناس،^(١٢١) وأمر بتجديد عمارة الجامع الأزهر،^(١٢٢) وإعادة صلاة الجمعة فيه وقد كانت لا تقام فيه منذ أيام الحاكم العبيدي، وعمل على تبليط المساجد وتوسيعها حتى لم تبقى بقعة بمملكته إلا عمرها بالمساجد، وكان له دور معماري في المسجد الأقصى،^(١٢٣) وله دور في بناء منبذة مسجد عجلون الكبير.^(١٢٤) وأنشأ قناة العرُوب من بلدة العرُوب إلى مدينة القدس،^(١٢٥) وأهتم بترميم القلاع وطرق الإمداد،^(١٢٦) ورمم الظاهر بيبرس قلعة الكرك وجسرها،^(١٢٧) وحصن قلعة كل من عجلون، وألسلت (الأسلط)، والكرك، والشوبك.^(١٢٨)

خاتمة

لقد كان الظاهر ركن الدين بيبرس أسدًا اسمًا وفعلاً، كان من خيرة سلاطين المسلمين وقادتهم، فتح فتوحًا كثيرة وأعاد لحظيرة الدين بلادًا كثيرة من أيدي التتار والصليبيين، واتسعت دولة المماليك في عهده من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة مع الحجاز واليمن. ومع ذلك كان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه، انتقل من لعب الصولجان إلى إعلان الأذان، ومن جلبة الأقران إلى تلاوة القرآن، همه الجهاد في سبيل الله وقمع أعداء الله لا يفتقر عنهم ليلاً أو نهاراً، فهو أشبه ملوك الإسلام بالصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه. لقد كان بيبرس شوكة في حلق المارقين المفسدين والكافرين، ولعل نظرة متأنية في أعمال هذا السلطان المملوكي أن تفتح أبواباً واسعة لدرسه من مناح متعددة وخصبة، قد لا يتأتى مثلها إلا لقلة من حكام المسلمين عبر العصور.

خان" مسلماً صادقاً مخلصاً، فأخذ بيبرس في مراسلته واستماله للجهاد ضد "هولاكو" وأقهمه ذلك في رسائل متبادلة فاقتنع بركة خان بذلك وأصبح من أكبر أنصار الإسلام والمسلمين، ونسق مع بيبرس ضد "هولاكو" فاستمال بركة خان كثيرًا من التتار بالشام للدخول في الإسلام وأغدى عليهم هدايا وعطايا فدخلوا في دين الله أفواجًا، ولما هلك الطاغية "هولاكو" وتولى من بعده ابنه "أبغا" وكان أشد من أبيه عداوة للإسلام والمسلمين سعى لتجديد التوسع التتاري بالشام، الذي أصبح من أملاك الدولة المملوكية، وكتب إلى بيبرس يهدده قائلاً: "أنت صعلوك حقير، فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ وأعلم أنك لو صعدت إلى السماء، أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني فاعمل لنفسك على مصالحتي"، فجاء رد الملك بيبرس في منتهى العزة يقول: "وأعلموه أنني من ورثة المطالبة، ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة، وسائر أقطار الأرض".

وبالفعل كان الظاهر بيبرس من أشجع أمراء المسلمين في حرب التتار، وأنشطهم وكان لا يسمح لهم بالتجمع، بل كان يسارع بالانقضاض كالأسد الضاري، كما حدث سنة ٦٧١هـ عندما وصلت لمسامع بيبرس أن طائفة كبيرة من جنود التتار تجمعت عند نهر الفرات أسرع بجيشه وخاض بنفسه، وجيشه نهر الفرات وانقضَّ على التتار فمزقهم تمزيقًا، ثم كانت معركته الشهيرة مع التتار سنة ٦٧٥هـ، المشهورة بموقعة "البلستين".^(١٢٩) وقد ذكرنا فيها شعراً قيل فيها، وكان مع جيش التتار فرقة كبيرة من الروم، وهذا يوضح مدى العلاقة بين أعداء الإسلام فيما بينهم على اختلاف راياتهم، وكانت معركة رهيبة استشهد فيها الكثير من أبطال المسلمين وقادتهم وصبر المسلمون صبراً بليغاً حتى أنزل الله عز وجل عليهم نصره وكسروا التتار كسرة قريبة من يوم عين جالوت.

٢/٦- اعتقاله الملك المغيث حاكم الكرك لخيانتته

في سنة ٦٧١ هـ قصد الظاهر بيبرس بلاد الكرك واستدعى صاحبها الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل، فلما قدم عليه المغيث وكان الظاهر في غزة أرسله إلى الديار المصرية معتقلاً، فكان آخر العهد به^(١٣٠) وتفصيل ذلك أن الظاهر بيبرس توجه في العام المذكور من القاهرة، باتجاه الشام، فلما وصل إلى غزة، وصلت إليه والدة المغيث حاكم الكرك؛ تشفع لولدها عنده، فطمأنها وأكرمها وإذن لها في العودة إلى ولدها فعادت، ثم أرسل الظاهر بيبرس الرسل إلى المغيث فحضر بعد تردد، فقبض عليه الظاهر بيبرس، وبعث به إلى قلعة القاهرة، فكان آخر العهد به.^(١٣١) ولما لاحظ استياء بعض الأمراء من تصرفه بسبب القبض عليه، جمع الأمراء وأظهر لهم رسائل الملك المغيث إلى التتار، وفيها يحرضهم على قصد بلاده، وأطلعهم على كتب التتار إليه، التي حوت شكرًا للتتار ووعدًا للتتار له منها: "قد أقطعتك من بُصرى إلى غزة، ما أشرت إليه من طلب عشرين ألف فارس تسيرها لفتح مصر"، ووعد هولاكو بإرسال هذه القوات إليه، ويوصيه بعدة

الهوامش:

- (١٦) الدكتور صالح الأشر وزيلاه، معارك وبطولات، مرجع سابق، ص ١١٦ - ١٣٠.
- (١٧) شجرة الدر: هي الملكة عصمت الدين أم خليل محظية السلطان الصالح نجم الدين أبي الفتح أيوب، كانت ذات رأي، أخفت موت زوجها في المنصورة في قتاله مع الفرنجة، واستدعت ابنه تورانشاه من دمشق لتسلمه الحكم ولكنه هدهدها بالقتل، فقتلته رجال البحرية بعد سبعين أو ثمانين يومًا من تملكها، تزوجها عز الدين أيبيك التركماني ونزلت له عن السلطنة، بنت جامعًا قرب مشهد السيدة سكينة بنت الحسين ودفنت فيه عند موتها، وما زالت تقام فيه الشعائر إلى عهد المؤلفة. العاملي، زينب بنت فواز: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، الناشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢، بالأوقست، ص ٢٥٥.
- (١٨) سيف الدين المظفر قطز: قطز بن عبد الله المعري (ت ٦٥٨هـ) وهو ثالث ملوك الترك، كان مملوكًا للمعز "أيبيك" وترقى إلى أتاكب عساكر، خلع المنصور وتسلطن مكانه سنة (٦٥٧هـ)، فخلع على بيبرس وظيفة "أتاكب" ونهض لقتال التتار في عين جالوت وانتصر عليهم، وطارد فلولهم إلى بيسان، ودخل دمشق في موكب عظيم، وبينما هو في طريقه لمصر قتل، ودفن في القاهرة. الزركلي: الأعلام، مجلد ٥/٢٠١.
- (١٩) امتدت حياته خلال الفترة (٦٠٩ - ٦٥٦هـ/ ١٢١٢ - ١٢٥٨م)، وهو من سلالة هارون الرشيد وكنيته أبو أحمد آخر الخلفاء العباسيين في العراق. اعتمد على وزيره ابن العلقمي، مؤيد الدين، فكتب هولاءو حفيد جنكيز خان يثيرة لاحتلال بغداد ووعده بالإعانة على الخليفة، فدخلها هولاءو فجمع ابن العلقمي الخليفة وأبرز علماء بغداد فقتلهم هولاءو ومعهم ولدا الخليفة، العباس وأبو الفضل. الزركلي: الأعلام، مجلد ٤/١٤٠. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، أحداث سنة ٦٥٦هـ، وانظر مزيدًا من التفاصيل عند: أبي الفداء الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل: البداية والنهاية، راجعه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد محمد تامر، وشريف محمد، ومحمد عبد العظيم، ومحمد سعيد محمد، الناشر دار البيان العربي، القاهرة (د.ت) ج ٧/٢٤٤-٢٤٨ سنة ٦٥٦هـ.
- (٢٠) بيبرس المنصورى (ت ٨٢٥هـ): مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة (٧٠٢هـ)، حققه وقدم له ووضع فيارسة الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الناشر الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ١٠.
- (٢١) أبو الفداء، البداية والنهاية، ج ٧/٢٤٤-٢٤٨ أحداث سنة ٦٥٦هـ، ج ٧/٢٥٥ - ٢٥٦.
- (٢٢) امتدت حياته من (٦٢٧ - ٦٥٩هـ)، وهو آخر ملوك بني أيوب، دخل مصر عنوة سنة (٦٤٨هـ)، فانهزم فاستقر في دمشق وصفا له الملك نحو عشر سنوات، إلى أن غار التتار على بغداد، كان شاعرًا له ديوان من عشرة أبواب، منها الإلهيات والزهديات، قتله هولاءو. الزركلي: الأعلام، ج ٨/٢٤٩ - ٢٥٠.
- (٢٣) مدينة في ديار بكر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢٧٢/٥ وما بعدها.
- (٢٤) العسلي، كامل: المظفر قطز، ومعركة عين جالوت، ص ٩٩. "كانت الكنائس تتابع حركات المغول وتتخالف مع هولاءو ضد المسلمين".
- (٢٥) العسلي، بسام: المظفر قطز ومعركة عين جالوت، مرجع سابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.
- (٢٦) أبو الفداء: البداية والنهاية، أحداث سنة ٦٥٦هـ.
- (٢٧) هو الملك المغيث عمر بن العادل بن أبي بكر بن العادل الكبير، كان في جيشه بيبرس. أبو الفداء: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ٧/٢٤٨.
- (٢٨) المقرئ، تقي الدين: أحمد بن علي: السلوك في معرفة دول الملوك، طبعه القاهرة، ١٩٣٤م، ج ١/٤١٨/٢.
- (٢٩) سورة النمل آية ٣٤.
- (٣٠) المصدر نفسه، ج ١/٢، ص ٤١٦ حاشية (١).
- (٣١) سورة الأنعام آية ٩٣.
- (٣٢) المقرئ/ أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٣٦م، ج ١/٢، ص ٤٢.

- (١) الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٦، مجلد ٧٩/٢ - ٨٠.
- (٢) العسلي، بسام: المظفر قطز وعين جالوت، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م، ص ٥٢.
- (٣) انظر التفاصيل عند: العسلي كامل: المظفر قطز، ص ٤٨ - ٥٥. أما الملكة "مرغريت" زوجة الملك لويس التاسع فوضعت غلامها في دمياط بعد أن سمعت باستسلام زوجها وانهزامهم فسمته "الحزين" (Tristan).
- (٤) المرجع نفسه، ص ٥٣. وانظر موقع الزقازيق بين الإسماعيلية وطنطا على خريطة جمهورية مصر العربية (أطلس الأردن والعالم، المركز الجغرافي الأردني، ٢٠٠٣م، ص ٥٢. وتقع العباسية على مسافة اثني عشر كيلو شرق مدينة الزقازيق الحالية.
- (٥) بيبرس المنصورى: مختار الأخبار، ص ١٠.
- (٦) عمر موسى باشا (الدكتور): تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٢٥ وما بعدها. وقد بلغ عدد السلاطين البحرية (٢٥) خمسة وعشرين سلطانًا بدءًا بشجرة الدر التي تسلطت ثمانين يومًا، وانتهاءً بـ "برقوق" وكانت مدة حكمهم من (٦٤٨ إلى ٧٨٤هـ) مدة (١٣٦) عامًا.
- (٧) الزركلي: الأعلام، مجلد ٧٩/٢ - ٨٠.
- (٨) موسوعة اكتشاف سوريا، "الظاهر بيبرس": (www.discover-syria.com)
- (٩) بيبرس المنصورى: كتاب التحفة المملوكية في الدولة التركية، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من (٦٤٨هـ - ٧١١هـ)، نشره وقدم له ووضع فيارسة الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، ط ١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، الدار المصرية اللبنانية. وفاته أن يذكر ثلاثة أبيات أخرى هي البيت الثاني، والبيت السادس والسابع وقد أدرجتها اعتمادًا على كل من الدكتور صالح وزميله. الدكتور صالح الأشر، والدكتور عمر الدقاق، والأستاذ محمد الأنطاكي، معارك وبطولات حربية إسلامية وعربية: معركة المنصورة، دار الشرق العربي، بيروت، (د.ت) ١٤٦-١٤٧.
- (١٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥/١٤٣.
- (١١) إشارة إلى أسر المسلمين الأسطول الصليبي، وكان للنار الإغريقية دور في تدميرها، ولم يفلت من أسطولهم إلا سفينة واحدة للقاصد الرسولي، ممثل البابا، تمكنت من التسلل عبر القطع البحرية الإسلامية وولت الأدبار إلى دمياط تحمل للإفرنج أنباء تدمير الأسطول الصليبي. (الدكتور صالح الأشر وزيلاه: معارك وبطولات حربية إسلامية وعربية: معركة المنصورة، ص ١٤٠.
- (١٢) كان من شروط الصلح أن أقسم الملك الفرنسي لويس التاسع أن لا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى، وأن يعيدوا دمياط للمسلمين بكل ما فيها دون شرط، وأن يدفع الفرنجة مبلغ (٤٠٠) ألف دينار فدية للملك ولسائر الأسرى الذين بلغوا اثني عشر ألف أسير وعشر نساء، على أن يتم دفع نصف المبلغ قبل إطلاق سراح الملك لويس التاسع والنصف الآخر بعد وصوله إلى عكا، ولضمان ذلك يحتفظ المسلمون بشقيق الملك كونت بواتيه رهينة عندهم، ولا يطلق سراحه إلا بعد دفع كامل المبلغ، ويتعهد المسلمون برعاية مرضى الفرنج، والمحافظة على معداتهم إلى أن تحين الفرصة لأخذها. المرجع نفسه، ص ١٤٢-١٤٣.
- (١٣) هي حجرة بالطابق الأرضي في دار القاضي فخر الدين بن لقمان بجوار جامع الشيخ الموافي القائم في وسط المدينة. المرجع نفسه، ص ١٣٨.
- (١٤) الطواشي: هو صبيح المعظمي كان مكلفًا بحراسة الأسرى الكبار وإكرامهم بما يليق لهم، وقد أسر الملك لويس وأخواه كونت انجو وكونت بواتيه، وخلع السلطان تورانشاه بعد أبيه النجم الصالح على الأسرى فقبل جميع الأسرى الخلع إلا الملك لويس الذي عداه إهانة. المرجع نفسه، ص ١٣٨-١٣٩.
- (١٥) Roi de France: أي ملك فرنسا، كما في حاشية كتاب التحفة المملوكية، ص ٢٥.

- (٦١) المقرئزي: السلوك، ص ٤٣.
- (٦٢) عماد عبد السلام: معركة عين جالوت، ص ٣٧. ينقل عن رشيد الدين، ص ٣١٣.
- (٦٣) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.
- (٦٤) رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، تعريب السيد الباز العريفي، بيروت، ١٩٦٩، ج ٣/٥٣٥.
- (٦٥) رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٣١٣.
- (٦٦) اليونيني: ذيل الزمان، ج ١/٣٦٥ م وعنده "بعث المظفر قطز الأمير بيبرس في عسكر ليتجسس خبر التتر".
- (٦٧) تقع عين جالوت بين بيسان ونابلس، من أعمال فلسطين، وما زالت خرائثها حتى اليوم وتقع عند الضفة اليمنى لنهر جالوت الذي ينبع من عيون قرب زرعين جنوبي العفولة، ثم ينساب حتى بيسان، ثم يمضي ليصب في نهر الأردن، شمالي جسر الملك حسين جنوبي الشونة الشمالية، ويبلغ طوله نحو (١٧) سبعة عشر كيلا، وعرضه بين كيلو واثنين، واتساعه عند مصبه أربعة أمتار، ويمثل امتداداً طبيعياً لنهر الأردن، مما دفع بعض المؤرخين إلى قولهم بأن عين جالوت وقعت في الغور الأردني، وفي Atlas of Israel تحريف لاسم جالوت إلى جارود وزعموا أنه الوارد في التوراة، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٤/٢٠٠ "عين الجالوت".
- (٦٨) خمار قسطنطين: أسماء الأماكن والمواقع والمعاليم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين، حتى العام ١٩٤٨، بيروت، ١٩٨٠، ص ٦٠ و ١٧٦. وانظر خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية، بيروت، ١٩٦٩، ص ٦٠ و ١٨٨، وفي عين جالوت أنشأ اليهود مستعرة باسم "عين جارد" انظر: أنيس الصايغ: بلدانية فلسطين المحتلة، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٢٠ - ٢٢١.
- (٦٩) الدكتور عماد عبد السلام: معركة عين جالوت، ص ٤١.
- (٧٠) يقع جبل جلبوع جنوبي غربي يسان، ويقع جبل الدحي غربي عين جالوت التي تقع غربي بيسان، وعين جالوت تقع على وادي الجالوت.
- (٧١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ٣١٤.
- (٧٢) المقرئزي: السلوك، ص ٤٣٠.
- (٧٣) لما رأى قطز انكسار الجناح الأيسر رمى بخوذته وصاح وإسلاماه ثلاث مرات، ثم هجم على العدو بنفسه، فتابعه سائر القادة فكان بداية انهيار جيش المغول، فكانت وإسلاماه إشارة هجوم متفق عليها. المقرئزي: السلوك، ص ٤٣٠. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/٧٩.
- (٧٤) ابن العميد، جرجيس: أخبار الأيوبيين، (د.ت) و(د.م)، ص ١٧٥. عماد عبد السلام (دكتور): معركة عين جالوت، مرجع سابق، ص ١٧٥.
- (٧٥) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
- (٧٦) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ص ٤٣٠.
- (٧٧) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٧٥.
- (٧٨) إسماعيل أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مصدر سابق، ج ٤/ ص ٢٠٥ - ٢٠٦.
- (٧٩) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ١٣٢٥ هـ ج ٤/٣٠٥.
- (٨٠) رشيد الدين: عين جالوت، ص ٣١٤.
- (٨١) عماد عبد السلام (دكتور): معركة عين جالوت، ص ٤٩.
- (٨٢) تبعد عن عين جالوت (١٢) كيلا.
- (٨٣) المقرئزي: السلوك، ص ٤٢١.
- (٨٤) المقرئزي: السلوك، مرجع سابق، ص ٤٢٥.
- (٨٥) أبو شامة: ذيل الروضتين، ص ٢١١.
- (٨٦) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤/ ص ٢٠٥ - ٢٠٦. وانظر: نصوص المؤرخين عن معركة عين جالوت جميعها في نهاية كتابه عماد عبد السلام (دكتور): معركة عين جالوت، ص ٦٥ - ٨٧.
- (٨٧) بيبرس المنصور: كتاب التحفة المملوكية في الدولة التركية، مصدر سابق، ص ٤٤. وانظر أبو المحاسن ابن تغري بردي: المهمل الصافي، طبعة فييت الترجمة ١١٠٣. والشاعر هو حسين الطردار، المصدر نفسه ج ٢/ ١٩٨.
- (٨٨) عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٥٦.
- (٣٣) المقرئزي: المصدر نفسه، ج ١/٢/٤٢٩ - ٤٣٧. وانظر: القلقشندي، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٢٦ هـ ج ٨، ص ٦٣ - ٦٤. وانظر: فايد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٤٦ - ٤٧.
- (٣٤) عماد عبد السلام رءوف (دكتور): معركة عين جالوت، دراسة مقدمة في ندوة الفكر العسكري العربي، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٧ - ١٨. ومن القيادات المتعاونة الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان، حاكم البيرة وبانياس، وقد أعدهم الظاهر بيبرس في عين جالوت.
- (٣٥) فايد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٤٨.
- (٣٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج ٧/٧٨.
- (٣٧) عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٤٩.
- (٣٨) المرجع نفسه، ص ٤٦.
- (٣٩) واصل المغول غاراتهم على المدن الفلسطينية والأردنية ناشرين الرعب فيها منها الصلح "السلط"، وبركة زيزياء التي هي جنوبي غربي مطار عمان الدولي اليوم، وبركها ما تزال غربي الطرق من عمان إلى معان، والخليل ووصلوا في بعض غاراتهم إلى غزة والكرك. اليونيني، قطب الدين موسى: ذيل مرآة الزمان، حيدرآباد، ١٢٧٤ هـ، ج ١/٣٥١، وابن شاكركتي: عيون التواريخ، بغداد ١٩٨٠ م، ج ٢/٢٢٤. وكانت غارات التتار جس نبض للقوات المملوكية.
- (٤٠) الهمذاني، رشيد الدين: جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت، وفؤاد عبد المعطي، القاهرة، ص ٣١٣. الدكتور عماد عبد السلام: معركة عين جالوت، ص ١٦.
- (٤١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، مصدر سابق، ج ٧/٧٨ يبين الانهيار المعنوي عند الناس من التتار، فالقلوب قد يئست من النصرة عليهم. انظر الدكتور عماد عبد السلام: معركة عين جالوت، ص ١٩ - ٢٠.
- (٤٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام (٥٧٧ هـ - ٦٦٠ هـ) خطيب ومدرس له عدة مؤلفات. الزركلي: الأعلام، مجلد ٢١/٤. ولسماحة الدكتور علي الفقير رسالة دكتوراه فيه من جامعة الأزهر سنة ١٩٨٠ م.
- (٤٣) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج ٢/٤٢٩.
- (٤٤) عمار، محمد: معارك العرب ضد الغزاة، بيروت، ط ١، ١٩٧٥، ص ١٢٩.
- (٤٥) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ج ٢/٤٢٩.
- (٤٦) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.
- (٤٧) عاشور، فايد حماد (دكتور): العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، في الدولة المملوكية الأولى، تقديم الدكتور جوزيف نسيم، دار المعارف بمصر، تقديم سنة ١٩٧٤، ص ٤٠ وما بعدها.
- (٤٨) الهمذاني، رشيد الدين: جامع التواريخ، مصدر سابق، ج ١/٣١٣.
- (٤٩) ابن البعري: غريبوروس: تاريخ مختصر الدول، ١٩٥٨، ص ٢٨٠.
- (٥٠) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/٧٧.
- (٥١) ابن البعري: مختصر الدول، ص ٢٢٤.
- (٥٢) ابن شاهين، غرس الدين خليل: زبدة كشف الممالك، باريس ١٨٩٤، ص ١٠٤ - ١٠٥.
- (٥٣) عمار عبد السلام (دكتور): معركة عين جالوت، ص ٣١. ينقل عن باحث عسكري في المجلة العسكرية، مجلد ٣٩، ١٩٦٢، ص ٤١.
- (٥٤) الطقطقي، ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة (د.ت)، ص ٦٥.
- (٥٥) عماد عبد السلام (دكتور): معركة عين جالوت، ص ٣٢.
- (٥٦) المجلة العسكرية، مجلد (٢٩) ١٩٦٢، ص ٤٠.
- (٥٧) عماد عبد السلام: معركة عين جالوت، ص ٣٤.
- (٥٨) أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٦٤ هـ) لأغراض عسكرية. المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ١/٢٢٧. وتقع على طريق القنطرة حالياً قرب قناة السويس، وكانت من قبل منطقة تحشد باتجاه الشام إبان الحروب الصليبية.
- (٥٩) المقرئزي: السلوك، مصدر سابق، ص ٤٢٦.
- (٦٠) ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطبعة بولاق، ١٣١١ هـ، ج ١/١٦.

تاريخ عمارة المسجد النبوي والظاهر بيبرس، ويكيبيديا: الموسوعة الحرة (ar.wikipedia.org)

(١٢١) موسوعة للمساجد في العالم، منتديات أوراق المدينة: (www.a-almadenah.com)

(١٢٢) حين تولى السلطان الظاهر بيبرس حكم مصر؛ عادت صلاة الجمعة للأزهر، وجمع الأمير عز الدين أيمن -وهو من أمراء دولة بيبرس- الحلي وبعض ما تبدد من أوقاف الأزهر، وانتزع من أيدي غاصبيه، ثم جدد سقوف الجامع وتبليطه، وكان للأمير بدر الدين بيليك الخازن دار الظاهري يد محمودة في هذا التجديد، فأنشأ رواقاً كبيراً أوقف عليه المزارع والعقارات، واشترط أن ينفق ربعها على من ينقطع في هذا الرواق لقراءة القرآن الكريم وإسماع كتب السنة المحمدية، وتدرس فقه الإمام الشافعي، وكان هذا الرواق هو أول أروقة التدريس بالأزهر، وبداية تحوله إلى جامعة مرموقة دولياً. ثقافة وفن -الأزهر- موقع إسلام أون لاين: (www.islamonline.com)

(١٢٣) ومن ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس البندقداري حينما زار القدس سنة 661 هـ وأمر بترميم كل ما تهدم من حرم المسجد، وأوقف عليه خائناً وعقارات يصرف عليه من دخلها. المسجد الأقصى، منتديات محيط: (www.forums.moheet.com)

(١٢٤) أما مثنته فقد أمر ببناءها الظاهر بيبرس ٦٦٢ هـ، وأعاد بناء ما تهدم منه بسبب السيول. (www.assawsana.com)

(١٢٥) الظاهر بيبرس، منتدى طرق الحق، فرسان السنة: (www.forsanelhaq.com)

(١٢٦) عمد السلطان بيبرس إلى ترميم القلاع التي دمرها المغول، وتأمين وصول قواته إلى بلاد الشام بالسيطرة على كل المدن والقلاع الممتدة على الطريق بين مصر والشام وجعلها تابعة لها، خاصة حصن الكرك الذي كان تحت سيطرة الملك عمر بن العادل بن كامل الأيوبي، الذي لم يقدم فروض الطاعة له، فاستولى على الحصن وقتل الملك عمر. وقد التفت أيضاً إلى تحصين الأطراف والثغور، وعمارة القلاع التي خربها المغول في الشام، وأخذ يزودها بالرجال والسلاح من مصر وبعض مدن الشام القوية. كما عمل على تقوية الأسطول، والجيش، وأشرف بنفسه على بناء السفن الحربية في دور صناعتها الموجودة في القسطنطينية والإسكندرية ودمياط، ولم يكتفي بهذا العمل لتأمين وصول قواته إلى الشام ومنع أي التفاف من الخلف، بل عمد أيضاً إلى التحالف مع بعض القوى الخارجية ليتفرغ للصليبيين.

(١٢٧) التميميون الداريون، عشائر شمال الأردن: (Amman-dj.com)

(١٢٨) محمد المناصير (دكتور)، صفحة من تاريخ الأردن ٣٣: (www.ammonnews.net)

(٨٩) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٤٣٥. وانظر إبراهيم ياسين الخطيب (دكتور): تاريخ المغول والمماليك، عمان، مؤسسة دارشربين، ١٩٩٣، ص ٦٣.

(٩٠) العسلي، كامل: مشاهير قادة الإسلام، المظفر قطز ومعركة عين جالوت، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٩١) البيرة بكسر الباء: بلدة قرب سمساط بين حلب والثغور الرومية، ولها قلعة حصينة. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، مصدر سابق، ج ١/٦٢٤.

(٩٢) بلد قديم كبير واسع بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ. البغدادي، ابن عبد الحق، عبد المؤمن: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٣ هـ/ ١٨٥٤ م، ج ٣/١٣١٦. أَيَّ مَا يُعَادِلُ سِتَّ كِلُومِيَّتَاتٍ. فالتر هنتس: المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المئري، عربه عن الألمانية الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ط ١، ١٩٧٠ م، ص ٩٤. أما المسافة بينها وبين حلب فتبلغ ثمانين كيلا، وهي إلى جهة الشرق منها.

(٩٣) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٦٠٦ - ٦٠٧.

(٩٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/ ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٩٥) ابن كثير: الحافظ العماد: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ٧/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٩٦) وعنده فرقا لا مرقا

(٩٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٠٤.

(٩٨) المصدر نفسه، ج ٧/ ٣٠٤.

(٩٩) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٥٨٥.

(١٠٠) تقع في آسيا الصغرى أسسها روين ملك أرمنية وتسمى سيسيبة لأن أهلها يقولون سيسي. كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، عربه بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥، ص ١٧٣.

(١٠١) عاشور، فايد حماد (دكتور) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة التركية الأولى، ص ٩٤.

(١٠٢) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٦١٨.

(١٠٣) مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا. الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج ١/ ١٨٢.

(١٠٤) قرية في بلاد الروم قريبة من أفسوس بلدة أهل الكهف في بلاد الروم. المقرئ: السلوك، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٢٥ حاشية (٧).

(١٠٥) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٦٣٠.

(١٠٦) اللهدم: السيف الحاد وكذلك السنان والناص. ابن منظور: لسان العرب مادة "لهدم".

(١٠٧) بيبرس المنصور: كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص ٦٧ أحداث سنة (٦٦٧ هـ).

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(١٠٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٤٤٦/٦ سنة ٢٩٦ هـ وما بعدها.

(١١٠) منتدى الطبقات، الظاهر بيبرس "الأسد الجديد": (www.altabaqat.com)

(١١١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧/ ٢٠٨.

(١١٢) بايعه الظاهر بيبرس في اليوم الثالث عشر من شهر رجب سنة (٦٥٩ هـ)، ورقمه الخليفة الثامن والثلاثون. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧/ ٢٧٣.

(١١٣) منتديات القصبي: (www.qassimy.com)

(١١٤) بيبرس المنصور: كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص ٥٦، أحداث سنة (٦٦٤ هـ).

(١١٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧/ ٣١٠.

(١١٦) أبو الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، ج ٧/ ٢٨٢.

(١١٧) فايد عاشور (دكتور): العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، مرجع سابق، ص ٨٠.

(١١٨) المرجع نفسه، ص ٨١.

(١١٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧/ ٢٩٠. (فيه ذكر لعمرانه)

(١٢٠) أرسل الظاهر بيبرس منبرا لمسجد الرسول الكريم سنة (٦٦٤ هـ) ومقصورة خشبية لتوضع حول الحاجز الخمس سنة (٦٦٥ هـ). انظر: توسعات المسجد النبوي عبر التاريخ (www.kasnazan.com)، (ourpect.club.com)